



معرف الكائن الرقمي للمقال: (DOI) 10.54239/2319-022-003-007

الحركة العمرانية ودلالاتها الحضارية بمدينة تلمسان خلال الفترة المرابطية
(473-542هـ/1079-1148م)

The urban movement and its civil significance for the city of
Tlemcen during the Almoravid period
(473-542AH/1079-1148CE)

ط.د.سميح موهوبي *

كلية العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة/الجزائر

مخبر التغيير الاجتماعي والعلاقات العامة للجزائر: جامعة محمد خيضر بسكرة

Samih.mouhoubi@univ-biskra.dz

د.فتيحة شلوق

جامعة محمد خيضر بسكرة/الجزائر

Fatiha.chelloug@univ-biskra.dz

تاريخ الإرسال: 2023/08/03 تاريخ المراجعة: 2023/08/30 تاريخ القبول: 2023/11/01

الملخص:

تشكل العمارة شاهدا أصيلا للإبداع الحضاري لأي أمة من الأمم، وهذا من خلال الشواهد والمنجزات المعمارية المتمثلة خاصة في المدن ومختلف مكوناتها، بل إن هناك من يقيس مدى التحضر الذي وصلت إليه الشعوب بما أنجزته وخلفته من موروث مادي كونه المرجعية نحو التميز الحضاري باعتبار أن العناصر المعمارية هي شواهد أصيلة تحمل في طياتها أبعاد ودلائل حضارية.

وضمن هذا السياق جاءت ورقتنا البحثية هذه التي تهدف إلى تتبع العمارة المرابطية بمدينة تلمسان من منظور البعد والدلالة الحضارية كون أن هذه الدولة قد كان لها منجزات

*ط.د.موهوبي سميح،، جامعة بسكرة



عمرانية فرضت تحولات وأبعاد حضارية تجلت أركانها في العلاقة القوية بين العناصر الإنشائية والزخرفية والفنية التي اصطبغت بها العمارة المرابطية، ولقد كانت مدينة تلمسان بالمغرب الأوسط من أبرز تلك المدن التي احتوت على منشآت عمرانية تعود للفترة المرابطية، ومن هذه المنشآت نذكر مدينة تاكرارت ومساجدها كالجامع الكبير بتلمسان والجامع الكبير بند رومة، وقد بقي بعضها إلى يومنا هذا شاهدا على خصوصيات الإبداع المعماري للدولة المرابطية.

الكلمات المفتاحية: العمارة؛ تلمسان؛ الفترة المرابطية؛ الدلالة الحضارية؛ المنجزات العمرانية؛ المساجد؛ المباني؛ المنشآت.

Abstract :

The form of the urban movement is an authentic and vivid witness to the civilized creativity of any nation, through evidence and architectural achievements of building cities, facilities and buildings. Indeed, there are those who measure the extent of civilization that peoples have reached by the extent of what they have accomplished and left behind in terms of material heritage, being the reference towards civilizational excellence, given that the elements Architectural evidence is authentic and carries with it cultural dimensions and evidence.

Within this context, our research paper aims to trace the Almoravid architecture in the city of Tlemcen from the perspective of the dimension and the cultural significance of this architecture. Indeed, this state had urban achievements that imposed transformations and cultural dimensions whose pillars were manifested in the strong relationship in the artistic and architectural aspects that were the aspect of the Almoravid architecture. Accordingly, the city of Tlemcen in the central Maghreb was one of the most prominent cities that contained the urban facilities of the Almoravid state. Among these facilities we mention the city of Takarart and the mosques, some of them have remained to this day as a witness to the peculiarities of the architectural creations of the Almoravid state.



Keywords: Architecture; Tlemcen; Almoravid period; cultural significance; urban achievements; , mosques; buildings; facilities.

مقدمة:

شكلت العمارة مظهرا من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب الإسلامي، حيث ظهرت به عدة دول أنشأت حواضر كبرى في مختلف أرجاء بلاد المغرب الإسلامي، كمدينة القيروان وتاهرت وفاس ومراكش وتلمسان، هذه الأخيرة التي تزخر بإرث معماري متنوع هام ما تزال معظم معالمه شامخة إلى يومنا هذا، مشكلة مظهرا من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية في المنطقة المغاربية.

ولقد كان مرور الدولة المرابطية واتخاذها لمدينة تلمسان حاضرة لها في المغرب الأوسط أثر كبير على عمارتها وهو ما أشار إليه الباحثون العرب والأجانب في دراستهم، ونظرا لأهمية الموضوع في ميدان الدراسات التاريخية خصوصا وفي كشف الحقائق المغيبة في الحديث عن دولة المرابطين الإسلامية السنية التي أقامها الفقهاء والعلماء والمفكرين، وما بذلوه من جهود في توحيد أرض المغرب والأندلس وتعميرهما تمحورت إشكالية الموضوع حول معرفة مراحل تطور العمارة المرابطية بمدينة تلمسان والوقوف على أهم التأثيرات المعمارية المرابطية بالمدينة وهل حملت في طياتها دلائل وسمات حضارية ؟

وقد استعملنا في هذه الدراسة عددا من المناهج التي تتناسب مع طبيعة الموضوع، فتم استخدام المنهج التاريخي لتتبع أهم التطورات التي عرفت العمارة بمدينة تلمسان خلال الفترة المرابطية إضافة إلى المنهج الوصفي الذي وظف في الوقوف على خصائص ومميزات هذه العمارة، إلى جانب المنهج التحليلي الذي أفاد في استخلاص الدلالات والسمات الحضارية لهذه العمارة.

1- مفهوم كلمة العمارة الإسلامية لغويا واصطلاحيا:

إن مفهوم العمارة يختلف حسب وجهة نظر كل متخصص وتبعاً لميولاته الثقافية والحضارية لذلك نجد عديد المفاهيم للعمارة .

1-1- العمارة لغة:



مأخوذة من الفعل عَمَرَ يَعْمُر، عمرا ويقال عمر الله بك منزلك يعمره عمارة وأعمره جعله أهلا ومسكونا، ومكان عامر فهو ذو عمارة، وأعمرت الأرض فهي عامرة وعمر الرجل ماله وبيته يعمره عمارة وعمورا وعمرانا (منظور، 1414: 604)، ويقال الرجل عاش زمانا طويلا، المنزل بأهله كان مسكونا بهم فهو عامر المنزل سكنه فهو معمور، أقام فلانا الدار: بناها فهي معمورة والاسم العمارة (علي ب.، 1991: 697)، ويقال عمر فلان يعمر إذا كبر في السن ويقال لساكن الدار عامر، الجمع عمار ومن هنا تكون العمارة البنيان الذي يبقى لأمد طويل (منظور، 1414: 604) وفي قوله تعالى: "والبيت المعمور"، (سورة الطور، 523)، والمعمور المخدوم وعمرت ربي وحججته أي خدمته وعمر المال نفسه يعمر وعمر عمارة (منظور، 1414: 604)

1-2- العمارة اصطلاحا:

يبدو أن أول من تكلم عن العمران والعمارة هو عبد الرحمن بن خلدون (ت 808هـ-1406م)، حيث أطلق عليها صناعة البناء في قوله: "هذه الصنّاعة أوّل صنائع العمران الحضريّ وأقدمها وهي معرفة العمل في اتّخاذ البيوت والمنازل ولكنّ والمأوى للأبدان في المدن. وذلك أنّ الإنسان لما جُبل عليه من الفكر في عواقب أحواله لا بد له أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها" (ابن خلدون، 1981: 509-510)، وهناك تقارب في الدلالة اللغوية واللفظية بين مصطلح العمارة والعمران فالعمران هو أساس فهم فكر ابن خلدون الاجتماعي التاريخي، وينطلق من هذا الفهم لشرح مختلف الظواهر المتعلقة بالمجتمع والحضارة البشرية (علي آ.، 2008: 174) فيقول: "أن الاجتماع للبشر ضروري وهو معنى العمران الذي نتكلم فيه" (ابن خلدون، 1981: 377)، فإذا كان الاجتماع والذي يعني به العمران ضرورة بشرية، فإن العمارة تكون أكثر ضرورة لأنها أساس هذا العمران فأى اجتماع للبشر لا بد له من موضع ومكان محدد لجغرافيته، أي لا بد له من قالب ينظم هذا الاجتماع والترابط البشري والذي يتجلى ويتجسد في أشكال العمارة والسكن (علي آ.، 2008: 174).



2- العمارة المرابطية بتلمسان ودلالاتها الحضارية:

عرفت العمارة الإسلامية بتلمسان تطورات متتالية خلال الفترات المختلفة والدول المتعاقبة واتسمت كل فترة بخصائص تميزها عن غيرها، وقد كان لوصول المرابطين إلى تلمسان ميزته المعمارية والمتمثل في التراث المعماري المتنوع والنوعي الذي خلفه المرابطون في المدينة مشكلا مرآة لهذه الدولة وقدراتها.

1-2- العمائر المرابطية بمدينة تلمسان:

كان أول اتصال للمسلمين بمدينة تلمسان في عهد والي افريقية أبي المهاجر دينار (55-59هـ/675-678م) الذي نزل بالقرب من تلمسان وتحديدا عند عيون بالقرب من المدينة، أصبحت تعرف بعيون أبي المهاجر وقد صالح أبا المهاجر بربر افريقية وفيهم كسيلة الأوربي (المالكي، 1994: 33)، لم تقدم لنا المصادر التاريخية أي إشارات فيما يخص الأعمال العمرانية في المدينة في هذه الفترة، ويبدو أن التطور العمراني الأول الذي حصل بالمدينة في الفترة الإسلامية كان بعد وصول إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب (أنظر التعليق 1) إليها فإزا من المشرق حيث وصل إلى المدينة بعد فشل حركة العلويين ضد الخليفة العباسي موسى الهادي ابن أبي جعفر المنصور سنة 169هـ/785م، حيث مكث بالمدينة ثلاثة أيام للاستراحة رفقة مرافقه راشد، ليعود إليها سنة (173 هـ - 788م) بعد أن أسس إدريس دولته في المغرب الأقصى، فأتاه محمد بن خرز، وكان من أعظم ملوك زناتة فبايعه ومن معه من القبيلة البربرية فدخل إدريس المدينة و أمن أهلها وأقام بها أشهرا (طه، 2011: 12)، كما قام فيها بأعمال عمرانية وبنى بها مسجدا كان غاية في الإتقان وأمر بصنع منبر وكتب عليه: "

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ الْإِمَامُ إِدْرِيسُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَذَلِكَ فِي شَهْرِ صَفَرِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ (السلواوي، د ت، 213)، كانت تلمسان حينذاك هي أغادير (انظر تعليق 2) فقط دون غيرها فكان مسجد

أغادير من أقدم المعالم الأثرية الإسلامية بمدينة تلمسان (مارسي، 2011: 26)

التطور العمراني الثاني الذي حصل بالمدينة في الفترة الإسلامية فقد حدث في عهد إدريس الثاني (177-213هـ/828-793م) الذي تولى الإمامة بعد والده إدريس الأول



وقد دخل تلمسان في سنة (199هـ/814م) (ابن خلدون، 1981: 103) ونظر في أحوالها وأصلح أسوارها وجامعها وصنع فيه منبرا " (ابن أبي زرع، 1973: 18 19) وقد بقي هذا المنبر إلى منتصف القرن السادس الهجري الثاني عشر ميلادي، عاينه المؤرخ المغربي أبو مروان بن عبد الملك بن موسى الوراق سنة 555هـ/1160م ودون عليه ملاحظات في كتابه "المقباس في أخبار المغرب والأندلس وفاس" (طه، 2011: 14) وعليه نقل الجزنائي في كتابه "جني زهرة الأس في بناء مدينة فاس" (الجزنائي، 1991: 28)، ويشير الباحث محمد الطمار أن الأسوار التي رممها إدريس الثاني قد بناها بنو يفرن، فأعاد ترميمها ليكون سكان المدينة في مأمن من حركات التمرد واللصوصية التي قد تتعرض لها، أما الجامع فقد بناه إدريس الأول كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك إلى أن إدريس الثاني فقد أعاد ترميمه وأقام له منبرا ابتغاء رضى الله ورضى الناس، خاصة وأنه أقام بالمدينة لمدة طويلة قدرت بثلاث سنوات حاول خلالها القضاء على التهديدات التي تهدد ملكه ولعل أبرزها تهديدات تاهرت، وقد كسب محبة الناس له بأعماله وإنجازاته (الطمار، 2011: 28).

تطورت المدينة قبل وصول المرابطين إليها حيث أشاد بها الرحالة الجغرافيين الزائرين لها إذ يصفها اليعقوبي (ت284هـ-977م) خلال زيارته لمدينة أكادير في القرن الثالث بقوله: "إن المدينة العظمى المشهورة بالغرب التي يقال لها تلمسان وعليها سور حجارة وخلفه سور آخر وبها خلق عظيم وقصور ومنازل مشيدة" (اليعقوبي، 1422هـ: 196)، أما ابن حوقل (ت367هـ-977م) الذي زار تلمسان بعد اليعقوبي بنحو ستين عاما فيشير إلى أن لها: "سور من أجر حصين منيع" (حوقل، 1938: 89) ولم يذكر السور الثاني وهذا الاختلاف أرجعه الباحث محمد الطمار إلى أن ما شاهده اليعقوبي هو ما بقي من أسوار بومارية، لأن الرومان استعملوا الحجارة في بنائهم، وأن هذه الأسوار قد بليت وتصدعت نتيجة الاضطرابات أو الفتن التي تعرضت لها المدينة في مختلف عصورها فقام أهلها بترميمها أو تجديدها مستعملين الأجر الذي كان يوجد بكثرة في أغادير، يقوم بصنعه الفخارين (الطمار، 2011: 10-11)

في القرن الخامس هجري الحادي عشر ميلادي أضحت من المدن الهامة والمزدهرة حيث تعددت العناصر السكانية بها منهم أهل الذمة وتحديدًا النصرانيون الذين



كانت لهم بها كنيسة معمورة، كما أورد البكري (ت487هـ-1094م) بأنها: "مدينة مسورة في سفح جبل ولها خمسة أبواب ثلاثة منها جهة القبلة، باب الحمام، وباب وهب، وباب الخوجة، وباب العقبة في الشرق، وفي الغرب باب أبي قرة وبها آثار قديمة" (البكري، 1992: 745-746)، لكن هؤلاء النصارى لم يبق لهم أثر في مدينة تلمسان حسب الباحث محمد الطمار فقد ذابوا في المجتمع مع توال الأيام أو غادروا، كما كان يقيم بتلمسان رجال الفكر القادمون من الأندلس والمتجهون للمشرق للحج، كما تواجد بها رجال المشرق وافريقية طلبا للعلم وكان بعضهم ينتقل منها إلى مدن الأندلس (الطمار، 2011: 38)، يتضح جليا أن المدينة كانت مركز جذب للسكانة ومن البيديي أنه كلما زاد عدد السكان اتسع مجال وعمران المدينة.

بعد قيام دولة المرابطين دخل يوسف بن تاشفين (453-500هـ/1061-1107م) إلى مدينة تلمسان في جموع المرابطين واستلحم بني يعلى ومن كان بها من مغرواة، وانقرض أمرهم من جميع المغرب، وذلك في سنة (473هـ/1080م)، واختط مدينة جديدة أطلق عليها اسم تاكرارت بمكان معسكره وهو اسم يعني المحلة بلسان البربر (ابن خلدون، 1981م: 62)، وتاكرارت تقع في الجانب الغربي من أغادير ولما نزل بها المرابطون ضربوا سرادقاتهم وخيامهم فيها، وسرعان ما تبدلت هذه السرادقات والخيام إلى دور، كما شيّدوا فيها قصرا نزل به أولو الأمر، ثم استخدمه الموحدون من بعدهم وبقي شامخا حتى عصر بني زيان حيث أطلق عليه القصر القديم نسبة إلى القصر الجديد الذي ابتناه يغمراسن بن زيان وأطلق عليه اسم المشور (الطمار، 2011: 43).

سميت المدينة الجديدة التي اختطها المثلثون باسم تافرزت وسكن بها الجند وأصحاب السلطان وأصناف من الناس في حين سكنت الرعية في المدينة القديمة أقادير (ياقوت الحموي، 1995: 44) وقد بنى يوسف بن تاشفين سورا للمدينة عند باب القرمدين (طه، 2011: 16)، ويجزم محمد الطمار بأن مدينة تاكرارت مسورة بدليل أنها كانت سكنا للجند وأصحاب السلطان، وأن لهم بها أعداء وأن سورها بني بالطابية (ينظر تعليق 3) كسائر الأسوار المرابطية، كما أرجع أثر السور الذي اكتشفه هنري تيراس إلى العصر المرابطي عندما استقروا بالمدينة (الطمار، 2011: 44)، كما أن المرابطين بعد أن



طردوا من تآكرارات من طرف الموحدين تمكنوا من المكوث لمدة أربع سنوات بأغادير، حيث أبدت أسوار المدينة مقاومة كبيرة بأبراجها ومنشآتها (مارسي، 2011: 137)، وهذا دليل على مدى حصانة المدينة في الفترة المرابطية.

شيد المرابطون المسجد الجامع بالمدينة الجديدة تآكرارات التي يبدو أنها اكتست أهمية بالغة أهلها لاحتضان هذا المسجد الكبير (مارسي، 2011: 30) قرب القصر وأثار تاريخ بناء المسجد جدلا واسعا بين الباحثين بسبب غيابات الكتابات التأسيسية التي يستشف منها تاريخ التشييد، فقد اقتصر المرابطون على النقوش الكتابية على بعض العناصر التابعة للمسجد، مثل منبري جامعي الجزائر وندرومة، كما أن هذه النقوش قد تكون ناقصة بسبب التدهور الذي يصيبها نتيجة العوامل الطبيعية مثل تآكل أخشائها أو بفعل يد الإنسان كما حدث في قبة جامع تلمسان، أو الإهمال لأن أهلها ليست لهم القدرة على إعادة بنائها، كل هذه العوامل وأخرى صعبت من تحديد تاريخ تأسيس المسجد (بوطارن، 2011: 88).

معظم المساجد العتيقة بالمغرب الإسلامي تعاني من هذه العوامل حيث اندثر بعضها، وأعيد بناء البعض الآخر، أو أدخل عليها تغييرات و إضافات تكاد تقطع صلتها بعهدا الأول مع وجود بعض الاستثناءات القليلة مثل مسجد القيروان بالمغرب الأدنى الذي مازال قائما على ما كان عليه أيام الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك في سنة (105هـ-723م)، ومساجد سوسة التي بنيت ما بين (206-205هـ/821-864م)، في عهد الأغالبة والتي تحتفظ بتاريخ إنشائها وبكل تجديد تعرضت له مسجلا بالحجارة على بنائها (فكري، د.ت: 249).

لقد أدى النقص في النقوش التأسيسية إلى تضارب الأقوال حول تحديد تاريخ بنائه والمراحل التي مر بها بناء الجامع فيرى الباحث جورج مارسي أنه بني على أيام يوسف بن تاشفين سنة (475هـ-1082م) (marcais, 1954: 197)، في الوقت الذي يكاد يتفق معظم الباحثين أن تاريخ بنائه يرجع إلى عهد علي بن يوسف بن تاشفين (500-537هـ/1107-1143م) في سنة (530هـ-1135م) (بوطارن، 2011: 89).



وقد استند جورج مارسي إلى مجموعة من الأدلة منها أن يوسف بن تاشفين أول ما قام به عند وصوله إلى مدينة جزائر بني مزغنة و بنائه مسجد جامع بها سنة (475هـ-1096م)، فلا يعقل أن يبني جامعاً في مدينة أقل شأنًا من تلمسان ويترك المدينة الجديدة تآكرات بدون مسجد يؤدي فيه السكان الصلاة، وبالتالي فإن تاريخ (530هـ-1135م) فترة حكم علي ابن يوسف ما هو إلا تاريخ ترميم المسجد وتزيينه بالزخارف الرائعة لا سيما تلك التي يتزين بها المحراب (الطمار، 2011: 44)، في حين استدل من أرجع بناء المسجد إلى فترة علي ابن يوسف بن تاشفين إلى النقش التأسيسي المحيط برقبة قبة المحراب بالجامع والذي حاول عبد المؤمن بن علي (524-558هـ/1130-1163م) أن يمحو اسم باني المسجد الذي ورد في النقش أعلاه، ويضع اسمه مكانه بمجرد استيلائهم على تلمسان (بوطارن، 2011: 89-90).

وقد عثر الراهب بارجيس (انظر التعليق 4) على أثر في محراب جامع تلمسان في القرن التاسع عشر ميلادي ورد فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً، هذا مما أمر بعمله الأمير الأجل... أيّد الله أمره وأعزّ وأدام دولته وكان إتمامه على يد الفقيه الأجل القاضي الأوصل ابن الحسن بن علي بن عبد الرحمن بن علي، أدام الله عزه ثم انتهى في جمادى الأخرى عام 530هـ." (حركات، 1984: 224)، وهذا أبرز دليل كما يرى إبراهيم حركات أن المسجد بني في عهد علي بن يوسف ومن جهة ثانية تشير كتابة أخرى منقوشة على حافة الباب الخشبي للمقصورة القديمة إلى رمضان 533هـ، وهما التاريخان الموافقان أي فترة حكم علي ابن يوسف، الحاكم ما قبل الأخير للمرابطين (مارسي، 2011: 174).

في حين رجح الباحث عبد الواحد ذنون طه رأي محمد الطمار في أن المسجد مر بعدة مراحل في بنائه، كانت الأولى في فترة يوسف بن تاشفين سنة 475، وأن المرحلة الثانية عندما تم ترميمه في فترة علي بن يوسف سنة 500هـ، (طه، 2011: 19) لأن المسجد كان قد شُيد في العهد الذي لم يدخل فيه بعد التيار الفني الأندلسي إلى المغرب، أي قبل استيلاء يوسف بن تاشفين على الأندلس (الطمار، 2011: 44)



اندثرت المعالم والصروح الأثرية في مدينة تلمسان كالقصور الملكية التلمسانية إلا أن المساجد لم تظلم يد التغيير منذ بنائها، عدا تأثير العوامل الطبيعية عليها وزخرفتها ببعض الزخارف التي شوهدت صورتها (مارسي، 2011: 53) والمسجد المرابطي بتلمسان هو الوحيد الذي بقي على شكله الأصلي من أثار المرابطين على الرغم من تعرضه منذ تأسيسه إلى اليوم لعدة إضافات، وهو بناء مستطيل الشكل، تبلغ أبعاده حوالي 60 مترا على 50 مترا، ويتألف من الصحن الذي يتوسطه، تكتنفه مجنبتان من الجهتين الشرقية والغربية، تشتمل الأولى على ثلاث بلاطات والثانية على أربعة وهي امتداد لبلاطات الصلاة، يشبه تخطيطه إلى حد كبير جامع قرطبة وكلا التخطيطين يشبه تخطيط جامع القيروان، (بوطارن، 2011: 97-98).

وغير بعيد عن مدينة تلمسان وتحديدا ندرومة (انظر تعليق 5) قام المرابطون ببناء مسجد جامع شغل بال الباحثين حول مؤسسه وتاريخ إنشائه يمكن تحديد آراء الباحثين في فريقين، الفريق الأول يتزعمه جورج مارسي وبيرك وينسب منبر المسجد إلى أحد أبناء يوسف بن تاشفين ويرى هذا الفريق أن بناء المسجد كان في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس، ورجح هذا الفريق أن يكون هذا الابن الذي قام ببناء المسجد لم يتولّى الحكم وينطبق عليه لقب الأمير، أما الفريق الثاني بزعمه رنيه باسيه، ورشيد بروبية فيرى أن المسجد من إنشاء الأمير يوسف بن تاشفين، وتحديدا في سنة 474 هـ-1081 م وهي الفترة التي أصبح فيها سيد بلاد المغرب، ويستند هذا الفريق إلى النقيشة التي وجدها رنيه باسيه والتي تضمنت عبارة "أدام الله توفيقه" وهذا الدعاء بلا شك يقصد به الأمير (بوطارن، 2011: 62-63)

ويرى الباحث مبارك بوطارن أن هناك تشابه كبير بين جامع الجزائر الذي بناه يوسف بن تاشفين وجامع ندرومة (بوطارن، 2011: 65) مما يرجح رأي الفريق الثاني، كما أنه ورد في مختلف المضام التي أرخت ليوسف بن تاشفين حبه وتشجيعه لبناء المساجد

2-2- الدلائل الحضارية للعمارة المرابطية بتلمسان:



ارتبطت العمارة في الحضارة الإسلامية ارتباطا وثيقا بالمجتمع مما جعلها تستحکم لقواعد اجتماعية وسلوكية، الأمر الذي جعل علماء وفقهاء الإسلام يتعرضون إلى ظاهرة العمران وما يتصل به فعرفت الكتابة التاريخية نوعا من الكتب التي تؤرخ للمدن الإسلامية منها:

"تاريخ مدينة السلام" للخطيب البغدادي، و"تاريخ مدينة دمشق" لابن عساكر، و"الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة" لابن شداد، "تاريخ بغداد" لا حمد بن أبي طاهر طيفور (ت 280هـ-892م)، كما أن أحمد بن محمد الرازي ألف في صفة قرطبة وخططها ومنازل العظماء بها، كما ألف المقريزي المؤلف الضخم الموسوم بـ "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار"، الذي يعد أشمل وأوسع كتاب عن مدينة إسلامية تناول فيه صاحبه بطريقة عجيبة الظواهر العمرانية والطبوغرافية للمدينة، فهو كتاب مؤسس في التاريخ العمراني وأول متخصص في تاريخ مدينة، لا يوجد من هو أقدم منه، فإذا عملنا مقارنة مع الكتب التي أرخت للمدن في أوروبا نجد أول كتاب هو تاريخ فلورنسا - storia di Firenze - كتب سنة 1408، أي بعد وفاة المقريزي بنحو أربعين عاما (سيد، 2020: 222-224)

وفي المغرب الإسلامي ظهر هذا النوع من التدوين عن العمارة بمنهجية تعلقت معظمها بالفقه والأحكام من ذلك على سبيل المثال لا الحصر مثلا "كتاب الإعلان بأحكام البنيان" لابن الرامي البناء (المتوفى في منتصف القرن الرابع عشر ميلادي) (البناء، 1999: 15) ومقدمة ابن خلدون (ابن خلدون، 1981م: 1)، ما يبين أن الحضارة الإسلامية منذ بدايتها حرصت على الاهتمام بالمباني العمرانية وتنظيمها وفق شروط محكمة، مما ساهم في المحافظة على التراث الأثري القيم في مختلف المدن الإسلامية فالعمران وظيفة بشرية لا تخص مجتمعا دون آخر فكل الحضارات أنتجت مدنا لا تزال تشهد على وجودها (حموش، 1999: 17)، منها دولة المرابطين التي لا يزال الكثير من أهل الاستشراق يصفونها بأنها دولة البداوة البعيدة عن الحضارة إلا أن الاكتشافات الأثرية المتعلقة بالعمران ومن قبل هؤلاء المستشرقين أنفسهم مثل الاكتشاف الذي قام به عالم الآثار الإسلامية رينيه باسيه في أفريل سنة 1900م في رحلته العلمية، التي حالفه



ففيما الحظ باكتشافه للوحة الخشبية التي نقش عليها الكتابة التذكارية للمنبر وتكمن أهميتها في ما تضمنته من آثار يستدل بها أن المسجد يعود بنائه للمرابطين (basset, 22: 1901) ومما يؤسف له أن الحشرات أتت على جزء كبير من كلمات هذا النقش، فمحييت كلماته التي تحمل اسم المنشئ، وهي حاليا موجودة بمتحف الآثار الإسلامية والفنون القديمة بمدينة الجزائر (بوطارن، 2011: 62-63).

وبهذا المثال يتراءى لنا مدى الأهمية الكبيرة التي تكتسبها الحركة العمرانية والمعمارية في إثبات الدلالة الحضارية لدولة المرابطين والتي من خلالها يمكننا أن نضع هذه الدولة في سياق تاريخها الحضاري، إذا كان جامع يوسف بن تاشفين الأول بسيطا خاليا من الزينة والزخرفة، فإن ابنه وخليفته علي ابن يوسف قد كانت له تأثيرات حضارية، من خلال الاحتكاك الحضاري مع سكان الأقاليم المفتوحة، والتأثر بالتراث المعماري لتلك الشعوب مثل ما حدث مع الأندلس، وتوظيفه في أبنية المساجد، ببعض عمليات التكيف كاستخدام بعض العناصر المعمارية التراثية، كالأعمدة الرخامية (ذنوب، 2013: 192) كما أدخل على جدار القبلة والمحراب وواجهته وقبته وعقود القبلة وواجهة عقد البلاط المركزي الحامل للقبلة زخارف كثيفة متنوعة تعبر بوضوح عن الثراء الفني والروح الجمالية فإذا كان يوسف بن تاشفين شغلته هموم أمته، فإن ابنه علي قد تهيأت له ظروف التشييد والبناء، فقد ولد من أم أندلسية ونشأ وترى في الأندلس لسنوات عديدة، فلا غرابة في أن تكون له الرغبة لإنشاء المباني وتطويرها وهو ما حدث من أعمال فنية ومعمارية في عديد المدن كتلمسان وفاس وتجلي في الزخارف النباتية لجامع تلمسان الكبير، وقبة البروديين بفاس (لعرج، 2011: 211)

بنيت المساجد المرابطية بمدينة تلمسان في فترة قصيرة، إلا أنها تبدوا للرثي بنايات رفعتها حرفيون ماهرون، بأمر من أمراء مؤمنين كان لهم شغف لبنائها، وقد أسهم صغر حجمها وبساطتها وتوفر مواد البناء في ضمان تناسق الأسلوب الفني المنتهج (مارسي، 2011: 54)

تطورت عمارة المساجد بتلمسان منذ التواجد الإسلامي الأول بها وقد اضطلعت المساجد المرابطية بمدينة تلمسان بأدوار شتى إضافة إلى الشعائر الدينية كان للمسجد



وظائف اجتماعية واقتصادية جعلته من أهم المنشآت التي أهتم بها المرابطون (يحي، 2020: 71)، وقد عرفت بلاطات المسجد الأعظم بتاكرارت توسعه فكانت شبيهة لقبب مساجد قرطبة، ويقطع سطحها قبتان واحدة تقع بأعلى الأسطوانة الوسطى من القسم الشمالي من البلاطة الوسطى، أما القبة الثانية فتتقدم المحراب، وهي من إبداعات الفن الأندلسي المغربي، تقوم من القاعدة إثني عشر عقدا تتقاطع فيما بينها، تاركة قبببة مقرنصة، والفراغات الناشئة من العقود تزدان بتوريقات مفرغة من الجص وتخللها شمسيات صغيرة، مشكلة منظرا رائعا يماثل قباب جامع قرطبة، فلا شك أنها من صنع نحاتين أندلسيين، والطابع الأندلسي يظهر بوضوح في محراب المسجد فهو كثير الشبه بجامع قرطبة (الطمار، 2011: 44-45)، وقد كان لهذا الجامع دور كبير في ازدهار الحركة العلمية حيث لم يكن أقل شأنًا من جامع الزيتونة بإفريقية، وجامع القرويين بفاس لأدوارها الكبيرة في الحركة العلمية وممن درس به في العهد المرابطي، الفقيه أبو يوسف الأغماتي التلمساني (523هـ-1128م) (يحي، 2020: 82)، إن القيمة الأساسية التي تكتسبها العمارة بمدينة تلمسان وبالأخص في الفترة المرابطية تكمن في التشابه والتقارب بينها وبين المعالم الأندلسية (مارسي، 2011: 18).

إن عمارة المرابطين عموما وبمدينة تلمسان خصوصا تميزت بالوسطية الإسلامية التي واءمت بين الفردية والجماعية في التعبير المعماري حيث تشكل العمارة انعكاسا للملكية الفردية من الداخل، وتنعكس الجماعية على العمارة من الخارج، فالمبنى من الداخل ملك لصاحبه وله حق في تصاميمه وفق ما يوفر له راحته وخصوصيته، أما من الخارج فهو ملك للمجتمع يخضع لقواعد التنظيم المعمول بها في المجتمع والتي تكون وفق ما نصت عليه قواعد الشريعة الإسلامية ومتعارف عليه الناس في المجتمع (داودي، 2011: 63)

-خاتمة-

يعد علم العمران بمثابة النافذة المفتوحة على حضارة الشعوب، وهو أداة للتعبير الحضاري الثقافي والفكري وكانت فترة المرابطين بمدينة تلمسان شاهدا حيا على تعاقب وتدافع الدول إذ لهذه الدولة إضافات عمرانية كبيرة بمدينة تلمسان، ساهمت في استنباط الحقائق الثابتة عن دولة المثلثين .



يتبين لنا من خلال هذا البحث أن مدينة تلمسان في الفترة المرابطية كانت من المدن العريقة التي حظيت باهتمام كبير في ميدان البناء والتشييد أبرزها بناء مدينة جديدة تكرر وتقاموا بتسويرها وكان للعمارة الدينية المتمثلة في المساجد نصيب وافر من العمائر المرابطية، فكان حكام الدولة محاربين ومشيدون ومؤسسين ومجددين .

اهتم المرابطون اهتماما بالغا بعمارة المساجد حيث وفي فترة وجيزة نجد أنهم تمكنوا من تشييد ثلاثة مساجد بالمغرب الأوسط مسجد تلمسان وندرومة بالإضافة إلى جامع الجزائر .

اهتمام المرابطين بعمارة المساجد جاء امتثالا لما أمر الله به تعالى من تعمييرها ورفع مكانتها كما ورد في القرآن الكريم "إِنَّمَا يَعْزُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ" (التوبة، صفحة 189) والأحاديث النبوية العديدة التي حثت على فضل عمارة المساجد، ومن هذا المنطلق فعمارة المرابطين ليست مجرد مجموعة من الأحجار، بل إن هذه العمائر ارتكزت على مبادئ الشريعة الإسلامية التي استقى منها المعماري المرابطي أفكاره.

تعد المساجد من أطول المباني عمرا من الناحية العمرانية والوظيفية مما يجعلها شاهدا حضاريا ذا دلالة حضارية، ولعل مسجد تلمسان شاهدا على ذلك إذ جاءت بلاطاته على النحو المتبع في مساجد قرطبة.

نسجل أيضا استفادة المرابطين من الخبرة الأندلسية في بعض عمائرهم بالمغرب الأوسط وذلك من خلال استخدام البنائين والصناع.

نستنتج كذلك أن الإرث العمراني يرتبط بمسألة عميقة وشاملة وله دلالة حضارية في علاقة الشعوب بتاريخها القديم، فمتى فهمنا روابط الحاضر بالماضي باتت كيفية التعااطي مع الموروث الثقافي في مجتمعنا محددة المعالم.

وفي الأخير نرجو من السلطات المعنية الاهتمام بما تبقى من هذه العمائر قبل اندثارها، وذلك بصيانتها وترميمها وتوظيف آليات تطبيقية للحفاظ على هذا الإرث المعماري الإسلامي وتفعيله في قطاعي السياحة والاقتصاد، واستعماله وإدماجه في واقعنا المادي من أجل متطلبات العصر الحديثة.

التعليقات:



-التعليق1: إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب أنتقل من المشرق إلى المغرب بعد وقعة فخ حيث هزم العلويين من قبل أصحاب الهادي وأدرك الخلافة بالمغرب الأقصى وتوارثها بنوه (العمري، 1423هـ: 152).

التعليق2: أغادير، أطلق على المدينة اسم أقادير وهي تسمية أطلقها البربر وتعني الجدار القديم والمحصن أو القلعة وتقع في سفح جبل الصخرتين ثم بنيت تآكرارت من طرف المرابطين وخرجت أغادير من مهدها قليلا ثم تاهبت في القرن 14 لانتقال أخر مع بناء مدينة المنصورة سميت تلمسان وهي أيضا كلمة بربرية مركبة من تلم وتعني تجمع وسان وتعني اثنان (الطمار، 2011: 10). ليكون المعنى المدينة التي تجمع بين الصحراء والتل

-التعليق3 الطابية : تراب مختلط بالكلس يصب في قوالب خشبية حتى يصير جسما واحدا ويركز إلى أن يتم وينظم الألواح كلها فيأتي الحائط منتظما كأنه قطعة واحدة (الرحمان، 1981م: 512).

-التعليق4: بارجيس، قس وراهب وأحد العلماء المستعربين الذي شغف حبا بمدينة تلمسان فخصص لدراساتها الحظ الأوفر من أعماله زار تلمسان بعد اقتحام الجيش الفرنسي لها (سبتمبر -أكتوبر 1846م)، من مؤلفاته حول مدينة تلمسان "تاريخ بني زيان" الذي نشر سنة 1852م وكتاب تكملة تاريخ بني زيان الذي نشر سنة 1887م، كما له دراسة حول الولي التلمساني الكبير "سيدي بومدين"، وكتاب العلاقات التجارية بين تلمسان والسودان في القرون الوسطى (مارسي، 2011: 15-16).

-التعليق5: ندرومة، مدينة واقعة في الشمال الغربي من تلمسان تبعد عنها بنحو 60 كلم وصفها الحميري بقوله " مدينة في طرف تاجرا بأرض المغرب، وهي مدينة حسنة كثيرة الزرع والفاوكة رخيصة الأسعار، ولها مرسى مأمون مقصود وعليه رباط حسن..." (الحميري، 1980: 576).

القرآن الكريم

قائمة المصادر والمراجع

- 1- ابن خلدون عبد الرحمن، (1981) العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، بيروت، دار الفكر.
- 2- البكري أبو عبيد، (1992)، كتاب المسالك والممالك، بيروت، دار الغرب الإسلامي.



- 3- البناء ابن الرامي، (1999)، الإعلا بأحكام البنيان، تونس، مركز النشر الجامعي.
- 4- الجزنائي علي، جني زهرة الأس في بناء مدينة فاس، (1991)، ط2، الرباط المطبعة الملكية
- 5- الحموي ياقوت، (1995)، معجم البلدان، بيروت، دار صادر.
- 6- الحميري عبد المنعم، (1980)، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة .
- 7- السلاوي أحمد بن خالد الناصري، (د.ت)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء، دار الكتاب.
- 8- الطمار محمد، (2011)، تلمسان عبر العصور ودورها في سياسة وحضارة الجزائر، تلمسان، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- 9- العمري ابن فضل الله، (1423هـ)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أبوظبي، المجمع الثقافي.
- 10- الفاسي ابن أبي زرع، (1973)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة .
- 11- المالكي أبوبكر عبد الله بن محمد، (1994)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساکهم وسیر من أخبارهم وفضائلهم، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- 12- اليعقوبي أحمد بن إسحاق، (1422هـ)، البلدان، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
- 13- بوطارن مبارك، (2011)، العمائر الدينية في المغرب الأوسط، تلمسان، كنوز الحكمة.
- 14- حركات إبراهيم، (2000)، المغرب عبر التاريخ، الرباط، دار الرشاد الحديثة
- 15- حموش مصطفى، (1999)، المدينة والسلطة في الإسلام نموذج الجزائر في العهد العثماني، دبي، دار البشائر.
- 16- ابن حوقل أبو القاسم النصيبي (1938)، صورة الأرض، بيروت، دار صادر
- 17- داودي مصطفى، 2011، الحركة العمرانية الإسلامية والدلالات الحضارية خلال العصر الوسيط تلمسان أنموذجا، ورقة عمل مقدمة إلى مؤتمر تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، 3.4.5، أكتوبر 2011، تلمسان، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف .



- 18- ذنوب أحمد عبد الواحد. (2013). تطوير عمارة المساجد دراسة لدور التكيف في تطوير مساجد القرن الاول الهجري. عمان: دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع.
- 19- سيد فؤاد أيمن، (2020)، الكتابة التاريخية ومناهج النقد التاريخي عند المؤرخين المسلمين، ط2، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية.
- 20- طه دنون عبد الواحد، (2011) التطور العمراني لمدينة تلمسان الاسلامية دراسة في النصوص الخاصة ب أغادير تاكرارت، المنصورة، ورقة عمل مقدمة إلى مؤتمر، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعمارية الميراث الفني، 3.4.5 أكتوبر 2011 تلمسان، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف. ص 34-7
- 21- علي آزاد أحمد، (2008) حول العمارة والتشييد عند ابن خلدون، الفكر الاجتماعي الخلدوني المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية، ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 173-183.
- 22- علي بن هادية، (1991)، القاموس الجديد، ط7، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- 23- فكري أحمد، المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها. الاسكندرية مصر: دار المعارف.
- 24- لعرج عبد العزيز، (2011)، جمالية الزخارف النبا العممية في الفن الإسلامي بجامعي تلمسان الكبير وسيدي بلحسن، ورقة عمل مقدمة إلى مؤتمر تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني. تلمسان 3.4.5 أكتوبر 2011، تلمسان، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف.
- 25- مارسى جورج ووليم (2011) المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان، تلمسان، الجزائر الأصالة للنشر والتوزيع.
- 26- ابن منظور الأنصاري، (1414هـ)، لسان العرب. ط3. بيروت، لبنان: دار صادر.
- 27- يحيى بن مصطفى، (2020)، أدوار العمارة الدينية في المغرب الأوسط من القرن الخامس إلى التاسع الهجري ق 11-15م، قسنطينة: منشورات ألفا للوثائق.
- 28- basset, r. (1901). Nedromah et les traras. paris: ernest Leroux.
- 29- marcais, g. (1954). l'architecture musulmane d'occident. paris.